وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ(١) مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ(٢) أَن يَفْتِنَهُمْ(٣) وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ(٤) وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ(٥) ﴿٨٣﴾ ﴾

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم .. (٧١) ﴾ [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛ ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذى كان منتشراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء ، ويعيشون فى خُلُوٍّ من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التى يُحْرَصُ عليها ، ومع ذلك فهم قد آمنوا :

(١) ذرية : طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦] . وقيل : من بنى إسرائيل [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٣٩] .

(٢) ملئهم : آل فرعون والمقربون منه والموافقون له .

(٣) يفتنهم : يصرفهم عن دينهم بتعذيبه لهم .

(٤) عال فى الأرض : جبار مستكبر . والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

(٥) المسرفين : المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ[1] مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : «على الفرس» أو «على الكرسى» ويكون المستعلى فى هذه الحالة متمكّناً من «المستعلى عليه»؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء.

ولكن من استعمالات «على» أنها تأتى بمعنى «مع».

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ..(٨)﴾ [الإنسان]

أى : يطعمون الطعام مع حبه.

وحين يأتى الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك.

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ..(٧١)﴾ [طه]

جاء الحق سبحانه بالحرف «فى» بدلاً من «على»؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب فيه.

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) الخوف هو الفزع لتوقع حدوث مكروه ، أو فوت أمر محبوب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] وقال : ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)﴾ [البقرة] أى : فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوّفه جعله يخاف . قال تعالى : ﴿.. وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾ [الإسراء] وخوفه فلاناً أى : جعله يخافه يتعدى لمفعولين قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. (١٧٥)﴾ [آل عمران] .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨) ﴾ [الإنسان]

فكأنهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

أى: أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقُّع الآلام[1] .

وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زُوَّار الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه، بل يقوم به زبانيته.

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم.

وقال الحق سبحانه هنا: ﴿ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل: «يفتنوهم»؛ ليدلنا على ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون.

---

(١) من معانى الحرف (على): الاستعلاء؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً ، نحو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]. والظرفية؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥) ﴾ [القصص] أى: فى حين غفلة. والمصاحبة؛ نحو قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] أى: مع ظلمهم؛ ونحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان]. أى: مع حبهم للمال. ومن معانيها أيضاً: أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) ﴾ [المطففين] أى: من الناس. ومن معانى (على) أيضاً: المجاوزة، والتعليل، والإضراب، وأن تكون بمعنى الباء. انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى: (٢/٥٠٩ - ٥١٢)].

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً؛ ليكون كل لفظ فى القرآن جاذباً لمعناه.

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا [١] : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن مِنْ قوم موسى - عليه السلام - وكتم إيمانه.

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى؛ لأن فرعون كان جبَّاراً فى الأرض، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة.

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم [٢] ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون.

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

---

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير فى ﴿قَوْمِهِ﴾ عائداً على فرعون. وقد ذكر القرطبى قولاً آخر - ونسبه للفراء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون فى نفس الوقت، باعتبار أن الذرية أقوام آباؤهم من القبط أى: آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل.

(٢) استحياء النساء: أى: تركهم أحياء. وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى، فبطش فرعون بهم كان مستمراً، ولذلك قالوا لموسى: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا .. (١٢٩) ﴾ [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبنى إسرائيل قبل مجيء موسى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص].

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿.. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾ [يونس]

والمسرف: هو الذى يتجاوز الحدود. وهو قد تجاوز فى إسرافه وادَّعى الألوهية.

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون:

﴿..أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي..(٣٨)﴾[القصص]

وعلا فرعون فى الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين.

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ[1] وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ..(٥١)﴾[الزخرف]

إذن: فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)﴾

(١) المصر: البلد العظيم، قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا.. (٦١)﴾ [البقرة] أى: بلداً عظيماً كبيراً.
ومصر بغير تنوين هى بلادنا العزيزة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ.. (٢١)﴾ [يوسف] [القاموس القويم].

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

﴿ إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين.

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : «إن جئت يوم السبت القادم قَبِلتك فى المدرسة إن كان معك ولىُّ أمرك» ؛ ومجىء ولى الأمر هنا مرتبطٌ بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول.

وهنا يتجلَّى ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ [1] (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام [2] ، وقد ينفك مرة أخرى من

---

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقى لبلوغ المراد .

(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

ونجده سبحانه يبيِّن هذا الأمر بتحديد قاطع فى قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتى الأمر الإلهى :

﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه فى كل أمر إلى مَنْ آمن به ؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله فى التكاليف إلى الله فى «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الأخير هو المقدَّم ؛ لأنه شرط فى الشرط الأول [1] ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً [2] لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [3] (٨٥) ﴾

أى : أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْر وحَصْر الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه.

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ ..رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة.

ويقال : فتنت الذهب ، أى : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب . أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها . أما باقى الأدوات التالية فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى : ٤/ ٤٨٩ ، ٤٩٠].

(٢) فتنة : موضع عذاب . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيفتتنوا بنا . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].

الشوائب ، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك.

والفتنة التى قالوا فيها:

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

هى فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذَّبهم ، وكأنهم يقولون: يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد.

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين؟

إنهم فى هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقى لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون: إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقى.

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم فى النبوة ، يقول:

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا..(٥) ﴾ [الممتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول: هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه.

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدى الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [١] ..(١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى: أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان؛ لأنه أسوة [٢] ، فلم يقم بعمل

(١) ابتلى: اختبر. بكلمات: بأوامر ونواه كلّفه الله بها.
(٢) أسوة: قدوة حسنة.

إيمانى بمظهر سطحى.

إذن: فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير فى أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً.

وجاء قول الحق سبحانه:

﴿ . .ربَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

ليدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦) ﴾

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا فى إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان.

ورسول الله ﷺ يقول: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [1].

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم.

وهكذا يعلّم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُمْق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوِّه بالشر؛ لأن الذى يتعبك من عدوك هو شرُّه ، ومن صالحك أن تدعو له بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه » .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوِّه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدَّى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدَّى إلى الغَيْر .

وهم حين دعوا ألاَّ يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضِّح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملأه كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ ..إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حَقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق. وفرعون وملؤه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدَّقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم فى الكبائر ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

أى : اجعلنا بنجوة [1] من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفَّق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان فى ربوةٍ عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة "النجاة" .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس]

(١) النجوة : المرتفع من الأرض. ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه برىء سالم. [المعجم الوسيط : مادة (ن ج و)].

والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الدَّاء، والرحمة هي ألاّ يجيء الداء.

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا(١) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة، وأن الوَحْي قد جاء للاثنين برسالة واحدة.

فالحق سبحانه ساعة يختار نبياً رسولاً، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى.

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

(١) تبوءا: اتخذا واجعلا. قبلة: مصلى تصلون فيه لتأمنوا من الخوف. وكان فرعون قد منعهم من الصلاة. أقيموا الصلاة: أتموها. وبشر المؤمنين: بالنصر والجنة. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].
وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩): أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوّءا أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة .. (٨٧) ﴾ فعن ابن عباس: قال: أمروا أن يتخذوها مساجد. وعن إبراهيم النخعي قال: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿ يَٰأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]. وقال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية: (قبلة) أي: يقابل بعضها بعضاً. [من تفسير ابن كثير .. بتصرف].

ولا رَوِيّة [1] ، مثل الساعة التى تُؤذِّن ، أو المذياع الذى يذيع فى توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحى شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر ؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .

ولكن لنا أن نسأل :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا .. إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا : هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنىَّ هنا قد غرق ، ألا يعني ذلك مجىء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوةً وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

(١) الروية : النظر والتفكير فى الأمور ، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط : مادة (ر و ى)] .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا [1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر » [2] وهى إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .

ونحن هنا فى بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .

ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات فى القاهرة : « محطة مصر » .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]

نفهم منه أن التبوُّء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً [3] ؛ أى : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبوُّء - إذن - هو التوطن فى مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

---

(١) تبوأ: نزل وسكن.

(٢) ورد اسم «مصر» فى القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون فى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى: ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف]. أما قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر منونة ، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العلم الأعجمى الذى يُمنع من الصرف والتنوين ، فهى مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة: المكان الذى ينزل به الإنسان ويسكن فيه . [لسان العرب: مادة (ب و أ) - بتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة[1] .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

والقبلة هى المتجَه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفّى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

---

(١) البيتوتة : مصدر للفعل بات يبيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ى ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة .

وإلى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات [1] اليهود فى أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى . .

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه ، ويسمى باسم «حى اليهود» . وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود» .

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم ؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا .

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى : أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة .

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

(١) الساحات : جمع ساحة وهى الناحية من البيوت . وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى . وساحة الدار : باحتها . [اللسان مادة : س و ح] ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] أى : بالمحلة أو الديار التى يسكنونها .

الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين فى أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر.

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف، وأن تكون الصفوف مستقيمة، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة، ثم ينحنى الصف.

وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة.

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام: إن معنى قول الإمام: «سووا صفوفكم» أى: اجعلوا مناكبكم[1] فى مناكب بعضكم البعض، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة، ولكننا نصلى تجاه الكعبة؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر، وهو أطول أضلاع الكعبة.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً[2] .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى: خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة، وبعض الناس يحاولون ذلك، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه:

---

(١) المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع عظم العضد والكتف. [لسان العرب: مادة (ن ك ب)].

(٢) القبلة: الوجهة. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا. ومعنى الآية هنا أن يبنوا بيوتهم، مواجهة للقبلة. أو: اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء [1] لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة فى العمر ، ونُزكِّى - إن كان عندنا مال - مرة واحدة فى السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة فى العمر.

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيَزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهى الصلاة.

ولكن مَن الذى اختار المكان فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين.

ونلحظ هنا فى هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية فى التبوء ، وجاء بالجمع فى جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد فى نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى الرسالة إلى بنى إسرائيل.

---

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعني: التبشير بالجنة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ[1] عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ[2] فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟[3] ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والزينة: هي الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأي غذاء يسدُّ الجوع، وبالمشرب الذي يروي العطش.

أما إن كان الطعام منوَّعاً فهذا من ترف الحياة، ومن ترف الحياة الملابس التي لا تستر العورة فقط، بل بالزي الذي يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل.

وكذلك من ترف الحياة المكان الذي ينام فيه الإنسان، بحيث يتم تأثيثه

---

(١) اطمس على أموالهم: قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها. وقال الضحاك وآخرون: جعلها الله حجارة منقوشة.

(٢) واشدد على قلوبهم: اطبع عليها. وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء. [ذكره ابن كثير في تفسيره: ٤٢٩/٢].

(٣) رأى: نظر بعينه كأبصر. ورأى بفكره وقلبه بمعنى: علم. ورأى: اعتقد. ورأى في نومه رؤيا: حلم. والرؤيا: الحلم في النوم. ورأى: هنا هي البصرية. أي: حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه معاينة.